مجلة علمية دولية محكّمة نصف سنوية
تصدر عن مخبر الدراسات النقدية والأدبية المعاصرة بتيسمسيلت/الجزائر
ISSN 2571-9882 EISSN 2600-6987
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/297
Contemporary Studies is a bi-annual open access International double-blind journal. It is published by the University of Tissemsilt, Algeria.

المجلد:08/ العـدد01 جوان (2024)، ص.ص378-389

صور الأمير عبد القادر الجزائري
مقاربة سيميائيّة

Pictures of of El Amir Abd El Kader Al Jazaery Asemiotic Approach

العارم عزّاني
azanilarem19@gmail.com
جامعة محمد لمين دباغين سطيف2
(الجزائر)

تاريخ الاستلام: 2024/01/04 تاريخ القبول: 2024/05/03 تاريخ النشر: 2024/06/02

ملخص: نروم من خلال هذه الأوراق مقاربة صور الأمير عبد القادر، والهدف من وراء هذا الجهد، إنما هو مكاشفة المعاني المحجَّبَة التي تبوح بها كل صورة من صور الأمير، وذلك من خلال الوسيط الذي تمثله العلامة غير اللغوية. ومن النتائج المرصودة: أن كل صورة قد بنيت على العلامة غير اللغوية، وأن هذه الأخيرة قابلة للقراءة والتأويل. كل علامة غير لغوية تهيكلت ضمن شفرة من الشفرات الخمس .

تعطي العلامة غير اللغوية دلالة حرفية وأخرى إيحائية، وفيما يخص الثانية فإنها تشتغل على سيرورة التدليل ومنه لا نهائية المعنى، وبهذا تغدو كل صورة من صور الأمير مجرة من الدوال والمدلولات، وهي تمارس البوح، متنصلة من محكي الوجود إلى محكي التاريخ عبر العلامة غير اللغوية، كل هذا وغيره، سيتم الاشتغال عليه تفصيلا، ضمن هذه الأوراق البحثية.

كلمات مفتاحية: العلامة غير اللغوية، الصورة، القراءة، التأويل، السيمياء، الأمير عبد القادر.

Abstract: *The present paper approaches the pictures of El Amir Abd El Kader and it aims at revealing the hidden meanings that are reflected in the text through non- linguistic signs. The findings of the study show that each picture is basically constructed on a non-linguistic sign that can be read and interpreted. Every non-linguistic sign is structured according to one of the five codes.*

The non- linguistic sign displays both a denotative and a connotative meanings, the latter focuses on the process of signification and the infinity of meaning. Every picture then becomes a galaxy of signifires and signifieds practicing revelation and escaping the narration of existence to the narration of history through non- linguistic signs. This is exactly what the current paper explores in details.

Keywords: *Non-linguistic Sign, Picture , Reading, Interpretation, Semiotic, El Amir Abd El Kader.*

أوّلاً- نسق المقاربة العام:

نتابع في عالم المقروئية نصوصا كثيرة، فمنها القصيدة، اللوحة، الرقصة، المنحوتة ...، وأخيرا الصورة، فمن جهة، كل واحد منها يعد نصا، ومن جهة أخرى هناك المختلف فيما بينها، وهو مرصود من حيث طبيعة الأداة المستعملة في نسج هذه النصوص، فمنها ما يستعمل الكلمة، أو الحركة، أو التّشكيل، أو اللّون ... إلخ، ليكون إقرارنا في المحصلة النهائية، أن ما سيق بشأن هذه النصوص texts، لا يخرج عن أحد طرحين، فهي إما أن تكون قد نسجت بواسطة العلامة اللغوية Linguistic sign، أوالعلامة غير اللغوية Non-linguistic sign.

وإن نصوصا بهذا التوصيف، نجد بعضها قد تجاوز الإبلاغ، والتواصل، إلى وظيفة أخرى منوطة بها، إنها ممارسة البوح، وذلك بعد أن راهنت على دخولها لعبة المعنى، فتصير هذه النصوص مشحونة بالدلالة، مما يؤهلها لأن تكون قابلة للقراءة reading والتأويل interpretation، ومن أهم هذه النصوص الصورة، وهذا الذي ينسحب على صور الأمير عبد القادر الجزائري[1].

صور pictures الأمير بما هي نص، قد شهدت تنوعا بين الصورة الفوتوغرافية وهي الصورة الملتقطة بواسطة آلة التصوير، أو الصورة المرسومة أي اللوحة، وقد عرفت إنتاجية متباينة على مستوى الأمكنة والأزمنة، في الوقت الذي ركنت فيه كل صورة منتجة من صور الأمير إلى مجموع العلامات المركبة لها، أو المدرجة فيها، وهي تأتي على شكل متناسق ومتلاحم، كشفت عن انتمائها إلى نسق غير لغوي، وهي تشكل داخل الصورة نظاما قائما بذاته.

والأهم الذي يتوجب علينا استدراكه في هذه الأسطر، هو أن بعض صور الأمير تصير بمثابة الوعاء لاحتواء الدلالة، حيث تتحول كل علامة غير لغوية فيها إلى ذاكرة تعمل على تخزين وترسّب الدلالة، وبشكل مكثف، وهذا ما يسمح لنا بالقول إن علامات الصورة المحينة مشحونة دلاليا، بالأحرى مِحْمَل دلالي بامتياز، تقول ولا تقول، تمارس البوح والسكوت في آن واحد، نشهد هذا؛ لأنها قد دخلت لعبة المعنى، حيث يسمح لها ذلك بالإيحاء، ومن ثمّ تُحوَّل العلامات المركّبة لصورة الأمير وهي ذات طبيعة غير لغوية من وظيفتها والمتمثلة في إنتاجية الدلالة الحرفية denotation إلى الاشتغال على إنتاجية الدلالة الإيحائية connotation، وهذا هو المغاير الذي يلبس العلامة غير اللغوية هوية جديدة، مما يجعلها دائما بحاجة ماسة إلى نوع من مكاشفة معانيها المحجّبة، وفق منهج مناسب.

يعضد فينا هذا النزوع صوب مقاربة صور الأمير، ما ورد عن الصورة ودلالاتها على لسان الأمير عبد القادر نفسه، ونستبين هذا من خلال الكلمة الشهيرة التي قالها الأمير في حق صورته، وقد شكلت رأيا خاصا به، وكان عبد القادر قد صاغها ذات مرة شعرا، فقال:

لئن كان هذا الرسمُ يُعطيك ظَاهـري ... فليس يُريكَ الرسمُ صورتنا العظمَى
فثمَّ - وراء الرسم - شخصٌ مُحجَّبُ ... له هِـمَّة تـعلـُو بأخـمصـها النجمَا
وما المرءُ بـالوجـه الصبيـح افتخارُه ... ولكنـه بالعـــقـــلِ والخُلُـــقِ الأسمَى
وإن جُـمعتْ للمرءِ هـذي وهـــذه ... فذاكَ لا يـبتغـى بـــعـــده ثـــعْمَى[2]

وعليه،

-ماهي الدلالات المحجّبة التي تكاشفنا بها صور الأمير عبد القادر بما هي في أصل تركيبتها علامات غير لغوية؟

إن مقاربة صور الأمير، لا يمكننا مكاشفة معانيها المحجبة إلا من خلال منهج مناسب يستطيع فعل ذلك، وعليه، سيكون من المرشحات لدينا المنهج السيميائي semiotic، تحديدا نظرية الشفرات[3]، وهي واحدة من بين المناهج النقدية المعاصرة، وقد زُوّدت بمعاول إجرائية وضعت خصيصا لأجل تلك المكاشفة.

وعن أهمية البحث، فيمكننا الكلام عن معرفة مدى إمكانية صدق تطبيق مناهج النقد الغربي على النص العربي، بعيدا عن سياسة تقويله، وزيادة على هذا، نورد فضول معرفة أهم النتائج الممكن التوصل إليها، من خلال مقاربة الصور كعلامة غير لغوية بواسطة المنهج السيميائي، وأخيرا بلوغ مأرب ثالث من وراء هذه المقاربة، وهو تهيئة الأرضية المعرفية بهذا المقال لدراسة ثالثة، مفادها مدارسة الوحدات الدلالية اللغوية[4] وغير اللغوية، طبيعة، نوعا، وظيفة، وهي تشتغل وفق استراتيجية الأنساق المفتوحة، طروح ما بعد البنوية أنموذجا.

أما الهدف من هذه الدراسة، وهو أننا نريد لهذه المقاربة أن تكون قفزة معرفية لإثبات إمكانية قراءة وتأويل العلامة غير اللغوية وفق السيميائية تحديدا السيميائية البارتية.

قبل شروعنا في نسج صفحات هذا المشروع، يمكننا الإشارة إلى مجموع الدراسات السابقة، حيث المقاربة السيميائية للعلامة غير اللغوية، صور الأمير أنموذجا، فقد وجدنا في هذه الكلمات المفتاحية، ثلاث دراسات، أولها مقال: محمد بن عربة، صورة وشخصية الأمير عبد القادر الجزائري من خلال شهادات ومذكرات أسراه - الألماني يوهان كارل بيرنت أنموذجا[5]، نشرت الدراسة سنة 2021م، في حدود عشر صفحات، وهي تتحدث عن شهادات حية من أجانب، تحديدا الأسرى الذين عاشوا بين كنفي الأمير عبد القادر.

وثانيها مقال محمد بلعربي، صورة الأمير عبد القادر في الأعمال الفنية الفرنسية[6]، يقع في حدود عشرين صفحة، نشر سنة 2020م، حيث استخدم منهج سيمياء المبصر، مما جعله يحلل صور الأمير من خلال الضلال، الألوان، آليات توظيفها، هذا من جهة. ومن جهة أخرى، فإن الصور المحللة مع هذه الدراسة تختلف عن الصور التي رشحناها للمقاربة، باستثناء الصورة رقم 02، وصورة لم يثبت الدارس شاهدها، وهي صورة الأمير وهو جالس أمام طاولة وعليها الكتب.
وهناك دراسة ثالثة، وهي عبارة عن مقال كتبه عبد الله ثاني قدور، وهو بعنوان: سيميائية صورة الأمير عبد القادر بين الحقيقة والتضليل[7]، نشرت سنة 2015م، في حدود سبع صفحات، حيث لم يورد صور الأمير، كما أن الدراسة جاءت مختلفة منهجا وتحليلا، ومما نشير إليه في الفقرة الأخيرة من الصفحة الأخيرة من المقال، أن الباحث وصل إلى ذكر أبعاد الصورة الفوتوغرافية وفهم الأمير عبد القادر للتقريري والتضميني ليكون قد سبق في ذلك بارت مؤسس السيميائية البصرية، لتنتهي دراسة عبد الله ثاني بعد هذه الجملة.
بناء على ما أوردناه، ومن نقطة نهاية أوراق محمد بلعربي، وعبد الله ثاني قدور، نتساءل، ألا توجد سيميائية أخرى غير سيمياء المبصر لمقاربة صور الأمير عبد القادر؟ إن الجواب، سيثبِّت المفقود الذي لم تغطه دراسة كل من محمد بلعربي، ودراسة عبد الله ثان على صور الأمير عبد القادر، منهجا، وآلية، ونوعية تحليل، ومنه فاتحة ميلاد أوراقنا العلمية، وهي تؤسس لمبحث يصنع فرادته بعيدا عن السيميولوجيا semiologie، وسيمياء المبصر، حيث سنختار المنهج السيميائي، تحديدا نظرية الشفرات البارتية، وما وفرته من آليات جديدة متميزة ومختلفة، أنتجها رولان، بعد أن أعلن عن انتقاله من البنوية structuralism إلى ما بعد البنوية post-structuralism، حيث النسق المفتوح open system، وتعددية المعنى polysemy، وفي هذه المرحلة السيميائية من عمر بارت اهتم بالاشتغال على العلامة اللغوية فقط، لينصب بهذا جهدنا على مقاربة العلامة غير اللغوية، حيث صور الأمير أنموذجا، نصا منتجا للمعنى بصفة لا نهائية؛ لأنها تُسِرَّ إلى متلقيها بالكثير من الدلالات الإيحائية، هذا من جهة. ومن جهة أخرى، سيكون من نصيبنا نحن عبر هذا المغاير توفير تنويعة منهجية في طرائق دراسة الصورة، مع الدراستين السابقتين، مما يفتح آفاقا ثرّة عن كيفية دراسة العلامة غير اللغوية.
وعليه، وبعد محاولتنا البريئة من التقاعس والتقصير؛ يمكننا الإقرار بأن مقاربة صور الأمير عبد القادر وفق منهج السيميائية البارتية، لم نجد لها سابقة بحثية، فكان كل ما عثرنا عليه من دراسات سابقة بعيدة عن رسم منهجنا ومنه عنواننا، ليبقى المفقود من الدراسات هو مرشح مشروعنا هذا.
في إطار كل ما سبق، وبعض ما جئنا به، حيث المنطلق، هو العلامة غير اللغوية، وصور الأمير أنموذجا، فضلا عن فكرة قابليتها للقراءة والتأويل،
-ما هي الدلالات التي لم تقلها صور الأمير عبد القادر؟
-بصيغة أخرى، ما هي المعاني المُحَجَّبَة عن المتلقين مما يستلزم إعادتها إلى الواجهة من خلال دعامتي القراءة والتأويل، وفق معاول السيميائية البارتية؟
-ومنه، ماهي الصورة العظمى التي تكاشفنا بها العلامة غير اللغوية، صور الأمير عبد القادر أنموذجا، بؤرة مشروعنا هذا؟
في ظل هذا وذاك يتبلور معنا نسيج عنونة هذا المشروع، وقد خط تحت لواء وحدات:

صـــور الأميـــر عبـــد القـــادر الـــجزائـــري
مقـاربـة سـيـمـيـائيّـــة

ثانيا-القراءة السيميائية لصور[8] الأمير:

الصورة الأولى:

نرى فيها الأمير عبد القادر وهو يجلس على كرسي، وبجواره طاولة صغيرة عليها غطاء، وفوق الطاولة وضعت كتب بعضها فوق بعض.

الصورة الأولى

البارز في الصورة – حسب قراءتنا - هو علامة sign الكتب؛ وهي عندنا خيار تركيبي من محور استبدالي متعدد، استُغني فيه عن علامات كثيرة منها: المزهرية، المنحوتة، تمثال صغير الحجم ...، أو أية علامة أخرى، حتى توضع فوق الطاولة كبديل دلالي غير لغوي عن الكتب، إلا أن الاختيار التركيبي للصورة قد عوّل على هذه العلامة دون سواها كمرشح دلالي أساسي لتركيبها، وهذا ما سيكون له لاحقا تأثير على دلالة النص الكلية بالنسبة للصورة الأولى، وعلى وجه أخص، حين يترابط هذا مع الدلالة التي ستنتجها علامة الكتب وهي في نسقها الجديد الذي حينت فيه.

إن بيان المغايرة الدلالية، هو أننا عندما نقرأ علامة الكتب، فإننا لا نريد بالدلالة ما ذكرته العرب من معنى حين قالت في لغتها: "الكتاب ... اسم لما كُتِب مجموعا"[9]، إن هذا المعنى الموجز في هذه الأسطر، إنما هو من الدلالة الحرفية، حسب اصطلاح بارت عليها، جاء في مفهومها استنتاجا من تقديماته، أنها مجموع المعاني الموجودة في المعاجم[10]، حيث تشتغل المعاجم اللغوية على لملمة مادتها، ومنها لسان العرب لابن منظور أنموذجا، من خاصياتها الاعتباطية arbitrary، والمواضعة.

إنه نسق دلالي باهت، مما يضعنا ونصنا في مأزق دلالي أكيد، يسوقنا حتما إلى مراتع أرشفة حدث التقاط صورة فوتوغرافية للأمير، ثم سكن الذاكرة بها، وبهذا ستكون وظيفة الصورة الأولى الوحيدة هي إثبات دليل حدث التواجد ذات سياق في الزمان والمكان، وعليه، وللخروج من هذا الإحراج، ينبغي عدم تبني الدلالة الحرفية أثناء قراءتنا للعلامة غير اللغوية؛ لأن معنى النص بها لا يستقيم؛ بل ينبغي تجاوزها إلى الدلالة الإيحائية؛ لأجل تحرير علامة الكتب في الصورة الأولى، ومنه تحرير كل النص؛ يحصل كل هذا لأجل أن نضمن استقلالية حركية النص الدلالية، ومنع عملية إخراج العلامة ومنه النص من دائرة لعبة المعنى.

تفسح المقاربة السيميائية المجال أمام علامة الكتب بإضافة المعنى الإيحائي، فسطوته على النسق الدلالي العام للصورة الأولى، ومن الإيحائي سعة اطلاع الأمير على مختلف العلوم والمعارف، ومؤشّ ذلك إنما هو المنابع المعرفية ذات الطبيعة الدينية، اللغوية، الفلسفية، الأدبية، الثقافية، التاريخية، الجغرافية، ... إلخ، وهي كثيرة ومتنوعة، نهل منها الأمير عبد القادر منذ صباه، حتى شكلت لديه مرجعيّة أثرت رصيده العلمي والمعرفي فيما بعد، وشهادة شارل هنري تشرشل

بيان حي عن ذلك، حيث قال: "قرأ هذا الطالب الشغوف المتحمس أعمال أفلاطون، وفيثاغورس، وأرسطو، ودرس كتابات مشاهير المؤلفين من عهود الخلافة العربية عن التاريخ القديم والحديث، وعن الفلسفة، واللغة، والفلك، والجغرافية، بل حتى عن الطب، وقد تجمعت لديه مكتبة ضخمة"[11]. ومن النتائج الجزئية المترتبة عن المعرفة والعلم الذين تمتع بهما الأمير، أنه "... عندما كان في الثانية عشرة ...، كان متمكنا من القرآن والحديث وأصول الشريعة، وبعد سنتين حصل على تسمية (حافظ)"[12].

إن تأويلنا – وهذا حسب وجهة نظرنا - لا يكفي أن نعادله بسردية أي كتاب توسع في سيرة الأمير عبد القادر العلمية والمعرفية، وهو في ذلك يشير إلى رجل مثقف، عالم، عارف، موسوعي ...، لا تكاد تفارقه كتبه، ومكتبته، حريص على جمع الكتب، ومعاقبة كل من يعبث بها أو يتلفها، فضلا عن شغفه بتأسيس مكتبة ثرة ببيته في الزمالة[13]، وليكون الأهم بالنسبة لهذه الأوراق إنما هو تأكيد المرصود معنا من المعاني المحجّبة من خلال الشفرة الدلالية الكتب، وما هذا إلا فيض من غيض لندلل به على إمكانية تأويل وقراءة صورة الأمير عبد القادر.

في ظل ما رصف، يتأكد معنا لماذا علامة الكتب وليس علامة المزهرية - وهذا من باب التمثيل لا الحصر- حين خرجت الصورة الأولى من خلال علامة الكتب عن محكي الوجود بما هو احتواء الزمان والمكان عبر هيئة مخصوصة لغاية الأرشفة في الذاكرة لمضمون الصورة الأولى كوجود عيني مثبت، إلى الترقي بشفرة الكتب إلى المحكي التاريخي، حيث إنتاجية النص التراوي، وهو يحيّن العلامة غير اللغوية كأداة للبوح عن سيرة الأمير العلمية، المعرفية، الثقافية..، فكانت الشفرة تقول ولا تقول، وقد اتكأنا في التدليل على ذلك، على الكثير من الأدلة وهي خارج النص لنثبت بها صدق مجموع مرويات الصورة الأولى، وهذا ما يسمح لها كنص راوي عبر الشفرة الدلالية الكتب بالخروج من أحادية المعنى إلى تعددية المعنى، ولن يتحقق هذا إلا عبر الانبناء على الدلالة الحرفية والإيحائية، مع التنويه بضرورة الانطلاق من الأولى ثم تحيين استراتيجية التجاوز بالثانية، وتعد هذه الاستراتيجية عملية جد مهمة بالنسبة للتأسيس لتعددية المعنى في أي نص.

الصورة الثانية:

الصورة الثانية، نرى فيها الأمير عبد القادر وهو واقف، وقد ارتدى لباسا تقليديا، أهم ما يذكر منه البرنس، كما نجد في الصورة الأمير وقد أمسك بإحدى يديه سبحة، مع التّنبيه إلى أنه كان ذا لحية شديدة السواد وقد علت محيّاه،

الصورة الثانية

دوال تركيبية تميزت بالاختلاف والتنوع، في الوقت الذي نسجل فيه أنها متناسقة، متلاحمة، وملائم بعضها لبعض، ناسجة نسقا دلاليا مضمرا خاصا بالأمير عبد القادر داخل الصورة الثانية، نتأول الشفرات الدلالية اللحية، السبحة، البرنس بالنسق الديني لدى الأمير، وهو نسق عقدي يوازن بين الظاهر والباطن، انتهجه الأمير مسلكا في حياته، قولا وفعلا، وفي مرحلة مبكرة من عمره، إنه نسق التصوف.

من الخصائص التي يبدو عليها شخص المتصوف في عمومه أنه يتميز بالكرم والرحمة بالآخرين، فضلا عن تجنب خيانة من يتعامل معهم، والصدق في المعاملة ...إلخ، وهذه الصفات هي ما ثبّتها أعداء الأمير عبد القادر فيه قبل مؤالفيه، ومن ذلك كرم الأمير مع بير برو جيرو ومن كان معه، حين قدموا على الأمير فاستضافهم، "وبعد .. اللقاء الأخير أمر الأمير بحصان لقرافيني، وببغال"[14] للآخرين ومنهم أدريان بير برو جير، ليستعينوا بها في إتمام رحلتهم. ومن الحكايات عدم غدر الأمير بأصحابه، وما ذكره أدريان في كتابه، حيث طلب من الأمير أن يسلمهم عمر ليعود معهم إلى أبيه، وعمر هذا رجل أوربي أسلم وعاش خادما ومقربا لدى الأمير عبد القادر، فقال الأمير في حقه: "..هل تريد مني أنا المسلم أن أطلب من مسلم أن يرجع إلى النصارى؟ إن ذلك محال؟"[15].

وعن حقيقة تصوف الأمير عبد القادر، فهي مقامة بالدليل النصي في ديوانه الشعري، حين صدح في إحدى قصائده بمذهبه هذا، وقد تم ذلك عبر العلامة اللغوية، يقول الشاعر:

أنَـا حَـقّ أتَا خَـلق أنـا رب أنا عَبْد
أنا عَرْش أنا فَرش وجـَحِيمٌ أنَا خَلد

أنَـا مَـاء أنـا نَـار وهــوَاءٌ أنا صَلد
أنَـا كـمْ أنـا كَـيفَ أنـا وجـدٌ أنا فَقْد
أَنا ذَات أنا وصْف أنا قـرْب أنا بُعْد
كلُّ كَوْنٍ ذاكَ كَوْنِي أنا وحْدِي أنا فَرْد[16]

إن الدلالات الإيحائية، التي أنتجت من خلال العلامات غير اللغوية المركبة للصورة الثانية، تنقلنا من تخوم النص القرائي إلى المسارعة بصورة الأمير إلى ميلادها نصا كتابيا، الأول بما هو نص ولد ليموت؛ لأننا بمجرد الانتهاء من قراءته نؤرشفه ضمن سلسلة المقروءات ولا نعود إليه ثانية. أما الثاني، فهو النص الذي مات ليولد؛ حيث المتلقي كلما أنهى قراءة صورة الأمير إلا وكانت لديه الرغبة في العودة إليها ثانية ليعيد تقديم قراءات أخرى فيها، وهي متجددة بتجدد العودة إليها، صانعة بذلك مجرة من المداليل المنتَجة، في ظل تعدد مداخل كل نص، وهذا ما سيسمح للعلامات غير اللغوية ومنه النص من أن يتحرر من تحنيطه ضمن أحادية المعنى؛ واخراجه إلى عوالم تعددية المعنى، وهي تتناسل بشكل لا نهائي، بفعل دعامتي القراءة والتأويل، وعليه تنتقل صورة الأمير من مجرد صورة فوتوغرافية أو لوحة تثبت وجود الذات في الزمكان بالسبحة والبرنس إلى نص مشحون بالدلالة، عبر استراتيجية اللعب الحر بشفراتها الدلالية.

الصورة الثالثة:

في الصورة الثالثة نرى الأمير عبد القادر وهو واقف، ارتدى لباسا تقليديا، وقد تقلد مجموعة من النياشين المعلقة على الجهة اليسرى من الصدر، ووسطه، وثالثة قد تموضعت على الجهة اليسرى من خصر الأمير.

الصورة الثالثة

تشكل النياشين المحور الرئيس في الصورة الثالثة، نذكّر بأنها علامات غير لغوية، لكنها هي الأخرى تجاوزت أن تكوّن نصا كلاسيكيا يشتغل فقط على تقديم الدلالة الحرفية، ومنه أحادية المعنى، فها هي النياشين في محاضن نسقها الجديد وهي تمارس إيحائيتها بمعاني الثراء. وقفة قصيرة مع الإيحاء من حيث مفهومه الذي صاغه بارت، فهو: "المعاني غير موجودة في المعجم ولا في نحو اللغة التي كتب بها النص"[17]، وما عرجنا هنا على ضبط مفهوم الإيحائي، إلا لأنه لم يمر معنا سابقا، فقررنا أن نورده في هذا السياق.

وإذا عدنا إلى صورة الأمير ثانية، نجد نيشانا قد نظّم على شكل قلادة توسطت صدر الأمير، ونيشانة أخرى قد هيكلت بشكل مختلف، استقرت على إحدى خصريه، وهي في مجموعها نتأوّلها عندنا بالقيمة، والمكانة المرموقة في الأوساط السياسية والعسكرية.

والإيحاء بالنياشين على الثراء، يتأكد معنا بالنسبة للأمير عندما نتذكر حادثة شراء الأمير عبد القادر، لقطعة أرض بسوريا وبنائه لبيت عظيم بها، وبالنسبة لمعاني القيمة والمكانة، أيضا نتذكر نابليون الثالث، واستقباله للأمير عبد القادر، وإعلانه الرسمي عن فك أسره، وهذا من بيانات المكانة المرموقة للأمير بين القادة والأباطرة والملوك، وعليه فالنياشين كشفرة دلالية ليست مجرد أشكال صنعت من مواد مخصوصة يمكن استعمالها لغرض الزينة، وإنما هي توحي بمدلول العظمة، المكانة، الرتبة ....، والقيمة للقائد الثوري الجزائري العظيم الأمير عبد القادر.

إن المعاني المتعددة وقد أفرزتها الشفرة الدلالية النياشين، قد أباحت للقراء انتقالهم من الاستهلاك إلى الإنتاجية productivity، حيث كل قارئ يتجرد من وجوده السلبي والمتمثل في الاكتفاء بتلقي نص الصورة الثالثة تحت رعاية المعنى الأحادي والدلالة الحرفية؛ لأن هذا ما سيبقي المتلقي تحت وطأة الاستهلاك الصرف، لتكون الخطوة الحاسمة في تاريخ كل قارئ هو تجاوزه بالنص إلى البحث عن إنتاجية نص جديد منه، وهذا هو التلقي الإيجابي، الذي يفضي إلى استراتيجية الإنتاجية، تعضده في هذا دعامتي القراءة والتأويل، وهي الاستراتيجية الجديدة التي شجعت على تبنيها النظرية البارتية كطرح ما بعد بنوي.

وإن جئنا إلى محل هذه الأنساق الإيحائية المتأوّلة من الحقيقة، يمكننا القول عنها بأننا نجدها حقيقة واقعة في حياة الأمير، فقد مُنحها بشكل فعلي، وبيان هذا الذي ذكرنا، نتكئ في إيراده على قصيدة للأمير عبد القادر نفسه، وقد ذكر فيها بصريح العبارة أنها نعم مُني بها دون أن يطلبها أو يسعى إليها، وقد ذكر عبد القادر في قصيدته أنه قد قابلها بالشكر، ومما جاء في ذلك:

ولـــم أر أعـــظمَ مـــن نعمةٍ مُنِحت ولم تـــك لي في حساب
سأشكُرُها شكر وقت السُّرورِ وأَذكـــرُها ذِكـر وقـــت لشباب
أيا سابقًا بـــالذي لـــم يجل بـفِكـــري ثـــوابًا ونـعمَ الثواب
كذا فـلتكن نـــعـــم الأَكْرَمِين تـــُـفاجِـى بلا مِنَّـــة أو طِلاب[18]

الصورة الرابعة:

الصورة الرابعة، وقد ظهر فيها الأمير عبد القادر وهو يرتدي لباسا تقليديا، وعليه برنس، وقد امتطى فرسا، بدا الأمير في الصورة وهو يمسك بزمام حبل معقود باللجام لقيادة الفرس، وقد حمل على الجهة اليسرى من خصره سيفا وعلى السرج أعلى الركبة قد علق الأمير خنجرا.

الصورة الرابعة

يفضي محور الاختيار المعوّل عليه في نسج نص الصورة الرابعة إلى قولنا بتعددية مداخل هذا الأنموذج، حيث مدخل السيف، الفرس، الخنجر، صانعة بذلك مجرة من الدوال في نص واحد، ومن بيانات إيحائية السيف بمدلول القوة، ما تلمسناه في مجموع الأخبار والحقائق التاريخية التي قصّت حكايات عن الأمير عبد القادر ونسق القوة الذي عرف به، وذلك حين بايعه قومه على سائر رجالهم، لمحاربة الاستعمار الفرنسي، ومما لدينا، نص يروي لنا سيرة تولية الأمير عبد القادر الإمارة، حيث جاء في الخبر، تحديدا في فصل رغبة الأهالي في تولية الأمير القادر، أنه بعد دخول الاستعمار الفرنسي الجزائر، وبلوغه مناطق الغرب، "رأى أصحاب الإقليم .. لعلهم يقعون على رجل منهم يصلح به شأنهم، وتجتمع به كلمتهم من أهل الإقليم، فلم يجدوا بيتا مشهورة لديهم أهله، مسموعة الكلمة لدى العام والخاص في جميع ذلك الإقليم، جامعة للغنى والعلم وتمام الفضل وكمال الفروسية من قديم الزمان إلا بيت السيد عبد القادر بن المختار الحسيني ...، فجاؤوه وطلبوا منه أن يتولى أمرهم وبايعوه على السمع والطاعة على أن يقيم فيهم الحدود الشرعية ويكف الأشرار عن شرهم ... فامتنع...، وقد تكرر الطلب منهم له مدة ثلاث سنين فلم يجب أحدا منهم. فلما كثر الهرج...، صمم على الإذن في الإمارة لولده المعظم الكامل السيد الأمير عبد القادر لما رأى فيه من النجدة وتمام الشجاعة والفروسية وقوة القلب والتأني في الأمور والتؤدة في المصالح والثبات في الخطوب العظام، وكمال العقل وزيادة المروءة والفضل"[19]. راح الأمير يتقدّم قومه وهو يشن حربه على فرنسا الاستعمارية، وقد أفضت إحدى معاركه التي تحلى فيها بالشجاعة إلى مطاردة الجنود الفرنسيين في سهول متيجة إلى مدينة الجزائر ومدينة المدية، وقد ألحق بهم هزائم نكراء جعلت العدو يحسب له ألف حساب.

إن نسق القوة قد أقر به الأمير عبد القادر، وذلك في أبيات شعرية نظمها مفتخرا بذلك، حيث العلامة اللغوية سيدة في الإنتاجية الدلالية، وقد حواها الديوان الشعري للأمير، ومما جاء فيها:

لنا في كلّ مكرُمة مجـــــالُ ومن فوق السّماكِ لنا رجالُ
ركِبنا للمكارِم كلَّ هَـولٍ وخُضنَـا أبحـرًا ولهـــا زِجالُ
إذا عنها تَوانى الغيرُ عجزًا فنحـــنُ الراحلـونَ لها العِجالُ[20]

ومما نشير إليه في هذا السياق، أن دال السيف كشفرة دلالية، وإيحائيتها بالقوة، لا يتوقف عند هذا الحد من إنتاجية المعاني الثواني، وإنما القوة تتحول بدورها إلى دال نتأوله بمدلول آخر، وهكذا...، وعبر سلسلة تدليلية غير منتهية تفضي بدورها إلى لا نهائية المعاني المؤولة، ومنه حركة سيميوزية نشطة منفتحة وبلا توقف، على القراءة والتأويل، فمن القوة،

يكون مدلول الشجاعة، وهذه الأخيرة نتأولها بالبسالة، وقد اشتغل عليها جميعها دال السيف كعلامة غير لغوية مؤسسة للصورة الرابعة. أما علامة الفرس، فمن إيحاءاتها البطولة، فالعظمة، وصولا عند الإيحاء بالإمارة...إلخ.

إن الشفرات الدلالية في الصورة الرابعة، وعلى النحو الذي سيق، يجعلنا، نؤكد على أنها أخذت موضع سلسلة من الدوال، أفضت إلى مجرة من الدوال، وهي تشتغل ضمن حركة سيميوزية أساسها الفعل التدليلي اللامنتهي بالنسبة للنص الرابع، ومنه إنتاجية سلسلة مدلولات هي الأخرى لا متناهية لتكون المحصلة الأساس لانهائية المعنى، ومنه المزيد من التأويل والقراءة، حتى نسرد من خلال الصورة الرابعة مسيرة بطولات سياسية وعسكرية للأمير عبد القادر في الجزائر إبان الاستعمار الفرنسي، من مشمولاتها سيرة معارك الأمير ضد الفرنسيين والخونة، فضلا عن مجموع الخسائر التي ألحقها بهم، سيرة توحيد الأقاليم لحرب الاستعمار، وانقياد أهالي تلك الأقاليم تحت إمرته[21]، سيرة قائد عظيم أراد بناء الدولة الحديثة[22] بالجزائر، حتى غدت هذه السيرة مفخرة أبناء شعبه، ووطنه، والعرب قاطبة، ويبقى الأهم – بحسب مقصدية أوراقنا البحثية – هو أن تغدو كل الشفرات الدلالية بالنسبة لصور الأمير جميعها متنصلة من محكي الوجود إلى محكي التاريخ عبر العلامة غير اللغوية، وهي مشحونة دلاليا، كانت تبوح بصمت عن تلك الصورة العظمى للأمير عبد القادر بما هي معاني محجَّبَة.

الخاتمة:

في ختام هذه الأوراق البحثية، يمكننا استخلاص النتائج الآتية:

-العلامة قسمان، يمكننا أن نشتغل عليها دلاليا داخل النصوص، فهي إما أن تكون علامة لغوية، أو أن تكون علامة غير لغوية، صور، الأمير عبد القادر أنموذجا.

-الاشتغال السيميائي تم معنا في نماذج غير هذه على العلامة اللغوية، وهنا نحن نريد أن نطلع على مدى كفاءة المنهج السيميائي، تحديدا السيميائية البارتية على مستوى العلامة غير اللغوية.

-الصورة تركيب أساسه التكويني علامات غير لغوية، دالة، وبما أنها كذلك فهي تبنى على الدلالة الحرفية والخاصية فيها أنها مقبورة في المعاجم، ونسجل بأن هذا النوع من الدلالات ضروري لبناء معنى أي نص، حيث تحتفظ كل علامة غير لغوية برسم دلالتها الحرفية في النص، إلا أنه في الوقت عينه، لا بد من التجاوز بالعلامة إلى الدلالة الإيحائية، بغية الخروج من أحادية المعنى والتأسيس لتعدديته، داخل نسق الصورة العام؛ لأنها القاعدة في دخول النص لعبة المعنى.

-لن تتم مكاشفة الإيحائي إلا عبر دعامتي التأويل والقراءة، مما يفضي إلى التحرر من الاستهلاك ودخول عوالم الإنتاجية، والتجاوز بالنص من كونه الأنموذج القرائي إلى النص الكتابي، حيث المداخل المتعددة.

-تتحول الصورة بما هي نص إلى مجرة من الدوال، وبما أن علامات الصورة غير اللغوية مشحونة دلاليا، فهذا يجعلها قابلة للقراءة والتأويل، ومنه، كل دال يشتغل ضمن حركة تدليلية لا تعرف التوقف، تفضي إلى نشاط سيميوزي ينتج لا نهائية الدوال والمدلولات ومنه لا نهائية المعنى.

-الصور في نسقها الدلالي العام، تتحول إلى نص راوي بعلاماتها غير اللغوية، راسمة النقلة من محكي الوجود إلى المحكي التاريخي، والذي هو في أصل الحقيقة جزء من السيرة الذاتية للأمير عبد القادر، فقط، قدمت بطريقة إبداعية، أساسها المعاني المحجبة، حيث اللامحكي عن الأمير علميا، دينيا، عسكريا، سياسيا ...، وفيه كانت الصورة تقول ولا تقول، تمارس لعبها الحر بالدوال، مما جعلها نصا كتابيا وليس قرائيا، استطعنا وفق المنهج السيميائي الذي اجترحه الناقد الفرنسي المعاصر رولان بارت من مكاشفته قراءة وتأويلا.

-قائمة الإحالات:

[1]هو: عبد القادر بن محي الدين الحسني الجزائري، ولد سنة 1807 أو 1808م، في سهل مَسكَرَا من المنطقة الوهرانية، توفي بدمشق بتاريخ 26 أيار / مارس سنة 1883م. ينظر: برونو إتيين، الأمير عبد القادر الجزائري، تر: ميشيل خوري، دار عطية للنشر، بيروت، لبنان، ط1، 1997م، ص: 15. ترك لنا الأمير العديد من الآثار، نورد منها: وشاح الكتائب وزينة الجيش المحمدي الغالب، وهو رسالة في فنون الحرب، المقراض الحاد لقطع لسان الطاعن في دين الإسلام من أهل الباطل والإلحاد، ديوان شعر، ذكرى العاقل وتنبيه الغافل، المواقف في الوعظ والتصوف والإرشاد، ...إلخ.

[2]ديوان الشاعر الأمير عبد القادر الجزائري 1807م-1883م، تح: العربي دحو، منشورات ثالة، ط3، 2007م، ص: 45.

[3]السيميائية كمنهج سيميائيات، إذ لدينا من الطرح سيمياء التأويل لشارل ساندرس بورس، سيمياء المواقف لأليكس ميكللي، سيميائية الأهواء والعواطف لجاك فونتاني وغريماس، سيمياء الكون ليوري لوتمان...إلخ، وأخيرا السيميائية البارتية وضعها الناقد الفرنسي رولان بارت، ويصطلح عليها أيضا بنظرية الشفرات البارتية، وهي عمدة التحليل السيميائي معنا، حيث عولنا على آلياتها لمقاربة صور الأمير عبد القادر، وقد أنجزت السيميائية البارتية من خلال دراستين هامتين، الأولى عبارة عن كتاب قرأ به بارت سيميائيا قصة سرازين، وهي قصة واقعية لبلزاك، ينظر:
.Roland Barthes, S/Z, Edition du Seuil, 1970-1
والثانية عبارة عن مقال، درس فيه بارت قصة قصيرة لجي دي موباسان، وقد نشر هذا المقال في مؤلف جماعي، وهو غير مترجم لحد اليوم، ينظر:
2- Roland Barthes, analyse textuelle d'un conte d'Edgar Poe, p29, 54. D'après le livre: sémiotique narrative et textuelle, Larousse, 1973.

[4]أنجزنا مقاربة وفق نظرية الشفرات البارتية، إلا أننا قد قرأنا بها العلامة اللغوية، ينظر: عزاني العارم، استراتيجية الغياب والحضور في الخطاب الروائي المعاصر، قراءة في الولي الطاهر لوطار، أطروحة لنيل درجة دكتوراه العلوم، إشراف الدكتور عبد القادر دامخي، جامعة محمد لمين دباغين سطيف2، 2015م. أما هذه الدراسة فهي تطبيق نظرية الشفرات ولكن هنا على العلامة غير اللغوية.

[5]ينظر: محمد بن عربة، صورة وشخصية الأمير عبد القادر الجزائري من خلال شهادات ومذكرات أسراه الألماني - يوهان كارل بيرنت أنموذجا، مجلة الحوار المتوسطي، مج12، ع02، سنة 2021م، ص: 248-257.

[6] ينظر: محمد بلعربي، صورة الأمير عبد القادر في الأعمال الفنية الفرنسية، مؤلف جماعي، دراسات افريقية جديدة، مخبر البحوث والدراسات الاستشراقية في حضارة المغرب الإسلامي، جامعة سيدي بلعباس، الجزائر، ط1، 2020م، ص: 32- 53.
وينظر:
https://www.researchgate.net/publication/349064629
تاريخ الزيارة: 2023/11/06م، الساعة 09.30.

[7]ينظر: عبد الله ثاني قدور، سيميائية صورة الأمير عبد القادر بين الحقيقة والتضليل، مجلة الصورة والاتصال، مج5، ع15، ماي 2015م، ص:6-13.

[8] :اشتغلنا على مقاربة كل صورة على حدا، وهي للأمير عبد القادر، وقد أخذت من موقع الكتروني، ينظر
https://www.google.com/search?client=firefox-b-e&q=%D8%B5%D9%88%D8%B1+%D8%A7%D9%84%D8%A3%D9%85%D9%8A%D8%B1+%D8%B9%D8%A8%D8%AF+%D8%A7%D9%84%D9%82%D8%A7%D8%AF%D8%B1
تاريخ الزيارة: 2023/11/06م، الساعة 09.45.

[9]ابن منظور، لسان العرب، تح: عبد الله علي الكبير وآخران، دار المعارف، القاهرة، مصر، د.ط، د.ت، مج5، ص: 3816.

[10]يراجع:Roland Barthes, S/Z, Edition du Seuil, 1970, p13, 14..

[11]شارل هنري تشرشل، حياة الأمير عبد القادر، تح: أبو القاسم سعد الله، الدار التونسية للنشر، د.ط، د.ت، ص: 47.

[12]م، ن،ص: 39.

[13]ينظر كمثال على ما أوردناه بركات محمد مراد، الأمير عبد القادر المجاهد الصوفي، دار النشر الالكتروني، د.ط، د.ت،ص: 20.

[14]أدريان بير برو جير، مع الأمير عبد القادر رحلة وفد فرنسي لمقابلة الأمير في البويرة (1837م-1838م) تر: أبو القاسم سعد الله، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954، الجزائر، د.ط، د.ت، ص: 112، 113.

[15]م، ن، ص: 112.

[16]ديوان الشاعر الأمير عبد القادر الجزائري: ص: 118.

[17] Roland Barthes, S/Z, P 13,14.

[18]ديوان الشاعر الأمير عبد القادر الجزائري: ص 94.

[19]الأمير أحمد بن محي الدين الجزائري الحسني، سيرة الأمير عبد القادر الجزائري الحسني، مؤسسة الأمير عبد القادر الجزائري الوطنية، الجزائر، د.ط، 2020م، ص: 47، 48، 49.

[20]ديوان الشاعر الأمير عبد القادر الجزائري، ص: 46.

[21]ينظر الفصل الثالث من كتاب: شارل هنري تشرشل، حياة الأمير عبد القادر، ص: 61 وما بعدها.

[22]بركات محمد مراد، الأمير عبد القادر المجاهد الصوفي، ص:16.

قائمة المصادر والمراجع:

أولا-المراجع باللغة العربية:

-أدريان بير برو جير، مع الأمير عبد القادر رحلة وفد فرنسي لمقابلة الأمير في البويرة (1837م-1838م) تر: أبو القاسم سعد الله، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954، الجزائر، د.ط، د.ت.

-الأمير أحمد بن محي الدين الجزائري الحسني، سيرة الأمير عبد القادر الجزائري الحسني، مؤسسة الأمير عبد القادر الجزائري الوطنية، الجزائر، د.ط، 2020م.
-بركات محمد مراد، الأمير عبد القادر المجاهد الصوفي، دار النشر الالكتروني، د.ط، د.ت،
-برونو إتيين، الأمير عبد القادر الجزائري، تر: ميشيل خوري، دار عطية للنشر، بيروت، لبنان، ط1، 1997م.
-ديوان الشاعر الأمير عبد القادر الجزائري 1807م-1883م، تح: العربي دحو، منشورات ثالة، ط3، 2007م.
-شارل هنري تشرشل، حياة الأمير عبد القادر، تح: أبو القاسم سعد الله، الدار التونسية للنشر، د.ط، د.ت.

ثانيا-المراجع باللغة الأجنبية:

-Roland Barthes, S/Z, Edition du Seuil, 1970.

ثالثا-المعاجم العربية:

-ابن منظور، لسان العرب، تح: عبد الله علي الكبير وآخران، دار المعارف، القاهرة، مصر، د.ط، د.ت مج5.

رابعا-المقالات:

-عبد الله ثاني قدور، سيميائية صورة الأمير عبد القادر بين الحقيقة والتضليل، مجلة الصورة والاتصال، مج5، ع15، ص:6-13.
-محمد بلعربي، صورة الأمير عبد القادر في الأعمال الفنية الفرنسية، (مؤلف جماعي)، دراسات افريقية جديدة، مخبر البحوث والدراسات الاستشراقية في حضارة المغرب الإسلامي، جامعة سيدي بلعباس، الجزائر، ط1، 2020م.
-محمد بن عربة، صورة وشخصية الأمير عبد القادر الجزائري من خلال شهادات ومذكرات أسراه "الألماني يوهان كارل بيرنت أنموذجا"، مجلة الحوار المتوسطي، مج12، ع02، سنة 2021م.

خامسا-مواقع الكترونية:

-https://www.google.com/search?client=firefox-b-e&q=%D8%B5%D9%88%D8%B1+%D8%A7%D9%84%D8%A3%D9%85%D9%8A%D8%B1+%D8%B9%D8%A8%D8%AF+%D8%A7%D9%84%D9%82%D8%A7%D8%AF%D8%B1

تاريخ الزيارة: 2023/11/06م، الساعة 09.45.